أبو العتاهية

للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى

أبو العتاهية مع الفضل بن الربيع وزبيدة

وعدنا فى المقال السابق أن نورد الأدلة التى تثبت صحة ما ذهبنا إليه من أن الفضل بن الربيع وزبيدة قد شجعا أبا العتاهية على الإضراب عن إنشاد شئ من شعر الحب للرشيد ووعداه المال والحماية من كل سوء يتعرض له بسبب ذلك الإضراب . وقد حان اليوم موعد الوفاء بذلك الوعد، وسنبدأ بما يتعلق من ذلك بالفضل . ولعل أول ما يلفت نظر الباحث إلى وجود علاقة بين الشاعر وبينه هو انقطاع الشاعر من مجالس الخليفة بعد شهور قلائل من تولى الفضل الحجابة للرشيد . والحق أن ذلك التقارب فى الزمن بين الحدثين كان أول ما نبه أذهاننا إلى احتمال وجود علاقة بينهما . بل كان الشرارة الأولى التى انبعثت من أعماق ذلك الماضى البعيد لتفتح أعيننا على ما كان من انزلاق الشاعر إلى ميدان السياسة وتعاونه مع الفضل وزبيدة

وإن المرء ليعجز عن أن يجد مناسبة أخرى لتشدد الشاعر فى مطالبة الرشيد بالتدخل السريع فى أمر زواجه من عتبة ، وإنا لنسأل أنفسنا لم اختار الشاعر ذلك الوقت بالذات ؟ مع أن أنسب الأوقات لمثل ذلك الموقف الصلب كان عقب موت الخيزران، فقد كانت عتبة تمتنع عن الزواج باحتياج سيدتها إليها وعدم رغبتها فى إغضابها ؛ أما وقد توفيت الخيزران سنة ثلاث وسبعين ومائة للهجرة فإنا لنعجب لم انتظار الشاعر بعدها سبع سنوات كاملة ليثور فجأة سنة ثمانين ومائة للهجرة ؟ . وما صمت فى رأينا إلا لعجزه، وما ثار إلا لتشويه بما رأى من تشجيع الفضل وزبيدة

ويلفت النظر أيضا ما أورده ابن الشاعر خاصا بإضراب أبيه عن قول الشعر فى الحب : « ... لما ذهب الرشيد إلى الرقة لبس أبي الصوف وتزهد وترك حضور المغادمة والقول فى الغزل ... » أليس المرء أن يسأل لم اختار ابنه ذهاب الخليفة إلى الرقة ليؤرخ به لإضراب أبيه عن القول فى الغزل ؟ ألا يمكن أن يكون هناك علاقة بين الحدثين . يبدو لنا أن الرشيد إنما ذهب إلى الرقة فرارا من زبيدة التى كانت تدفعها غيرتها الشديدة إلى التضييق على الخليفة وتنغيصه كلما خلا إلى جارية من جواريه ؟ فإذا صح هذا الافتراض كانت العلاقة بين الحدثين قوية ، إذ يتصل كل منهما بالنزاع الذى كان قائما بين الخليفة وزوجه حول اقصاله بجواريه على حسابها

ولندع هذا الاستنباط جانبا ؛ ولنعط للشاعر الفرصة كى يتحدث الينا بصراحة عما كان بينه وبين الفضل من اتفاق فى هذا الشأن : — يروى أبو الفرج فى الأغانى أن الرشيد وجد وهو بالرقة على أبى العتاهية وهو بمدينة السلام ؛ فكان أبو العتاهية يرجو أن يتكلم الفضل بن الربيع فى أمره فأبطأ عليه بذلك فكتب إليه أبو العتاهية : —

أجفوتنى فيمن جفانى ... وجعلت شأنك غير شانى
ولطالما أمنتنى ... مما أرى كل الأمان
حتى إذا انقلب الزما ... ن على صرت مع الزمان

فكلم الفضل فيه الرشيد فرضى عنه ورجع إلى حالته الأولى.

ولعل القارئ يرى معنا صحة ما ذهبنا إليه من صراحة هذا النص فيما ندعيه من وجود اتفاق سابق بين الشاعر والفضل ، وإلا فلم يتوقع أبو العتاهية أن يتكلم الفضل فى أمره ؟ ولم يسرع بتقريبه حين يتباطأ فى ذلك التكلم ؟ ثم انظر إلى الشاعر وهو يبدى دهشته وعجبه من أن يجفوه الفضل فيمن جفاه من الناس نتيجة

البلاد العربية ؛ ففى كل بلد منها طائفة من شعراء الشباب النابهين ؛ فى الإغضاء عن الإعجاب بقدرتهم الفنية إثم كبير

وليس فى استطاعة أحد أن يلم بكل هذا العدد الضخم من النابهين والمغمورين من الشعراء ، وسأقتصر على اختيار بعض نماذج صالحة للعرض والتقديم ، من المغمورين أولا ثم من المعروفين أخيراً ممن يناط بهم الرجاء . وقد أشرت إليهم إشارة موجزة فى كلمتى السابقة ، وفى الكلمات التالية إن شاء الله تفصيل هذا الإجمال . وإلى اللقاء مع الشعراء كل أسبوع

أحمد أحمد العجمى

لغضب الرشيد عليه كأن لم يكن هناك صلة بينهما، ثم يذكره في البيت الثاني بما كان من تشجيعه له على الثورة ضد الرشيد، مؤكدا له أنه لن يتعرض لمكروه ما بسبب تلك الثورة

ومن أدلة ذلك التفاهم والتعاون أيضا ما كان يصيبه الشاعر من مال الخلفاء نتيجة لتوسط الفضل له، وأمثلة ذلك كثيرة، فمنها ما حدث به الأغاني من أن الرشيد قد حم يوما فذهب أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة فيها :

لو علم الناس كيف أنت لهم ماتوا إذا ما ألمت أجمعهم
خليفة الله أنت ترجح بالنا س إذا ما وزنت أنت وهم
قد علم الناس أن وجهك يستغني إذا ما رآه معدمهم

فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد فأمر بإحضار أبي العتاهية فما زال يسامره ويحدثه حتى برئ ووصل إليه بذلك السبب مال جليل . ويذكر أبو الفرج أن خالد بن أبي الأزهر قال : بعث الرشيد بالحرشي إلى ناحية الموصل فجبي له منها مالا كثيرا من بقايا الخراج ، فوافى به باب الرشيد فأمر بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه، فاستعظم الناس ذلك وتحدثوا به، فرأيت أبا العتاهية وقد أخذه شبه الجنون فقلت له : مالك ويحك ؟ فقال لي : سبحان الله أيدفع هذا المال الجليل إلى امرأة ولا يتعلق كفي منه بشيء ! ثم دخل إلى الرشيد بعد أيام فأنشده :

الله هون عندك الدنيا وبغضها إليكا
فأبيت إلا أن تصغر كل شيء في يديكا
ما هانت الدنيا على ... أحد كما هانت عليكا

فقال له الفضل بن الربيع يا أمير المؤمنين ما مدحت الخلفاء بأصدق من هذا المدح، فقال يا فضل : أعطه عشرين ألف درهم. ولم يقتصر هذا التعصب للشاعر والترويج له على عهد الرشيد ، بل ظل الفضل على وفائه للشاعر حتى عهد الأمين . ومثال ذلك ما كان من الفضل حين ذهب إليه الشاعر بنعل مكتوب على شراكها :

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشي الى المجد
لو كان يصلح أن أشركها خدي جعلت شرا كها خدي

فدخل بها الفضل إلى الأمين وأهداها إليه فاستخلص بها عشرة آلاف درهم للشاعر

أما تشيع الشاعر لزبيدة فقد بدا واضحا في أشعاره المختلفة التي كان يخدم قضيتها بها كما سنشرحه في حينه ، ونقتصر الآن على مقطوعة واحدة أنشدها لأول خروجه من سجن الرشيد حين قرر أن ينضم إلى معسكر زبيدة والفضل

من لقلب متيم مشتاق شفه شوقه وطول الفراق
طال شوقي إلى قعيدة بيتي ليت شعري فهل لنا من تلاق
هي حظي قد اقتصرت عليها من ذوات العقود والأطواق
جمع الله عاجلا بي شملي عن قريب وفكني من وثاق

لا يرى مؤرخو الأدب في هذه الأبيات إلا احتيالا من أبي العتاهية للخروج من سجن الرشيد الذي أقسم ألا يخرجه حتى يقول شعراً في الحب . وأما نحن فنرى فيها شيئا آخر إلى جانب ذلك بل وأهم من ذلك . نرى فيها مبادرة من الشاعر إلى البر بالعهد الذي قطعه على نفسه لزبيدة بأن يلتزم جانبها في كل ما يقوله للرشيد من أشعار . وها هو لم يعد ينشد الرشيد من أشعار الحب مايغريه بالجواري كما كان يفعل من قبل ، بل يضرب للرشيد المثل فيما يجب أن يفعله في حياته الخاصة من الاقتصار على امرأة واحدة ، وما تلك إلا زوجه وابنة عمه زبيدة ، وكأنه يقول للخليفة إن حياة الاستقامة والزهد التي يستقبلها لا تستقيم له إذا فكر في أخرى بجانب زوجه . ولا شك أن الترويج لمثل تلك الأفكار يسر زبيدة ويثلج صدرها ، ألا ترى أنها قد أغرت بعض جواريها بأبي نواس يضربنه حتى أشرف على الموت حين استباح لنفسه أن يتحدث إلى الرشيد في جمال الجواري وعذوبتهن ؟ ثم عادت فأجزلت له العطاء حينما علمت أنه انتفع بالدرس القاسي الذي ألقته عليه وأخذ ينفر الخليفة من أولئك الجواري وينصحه بالاقتصار على زهرة قريش ، وما كان يعني إلا زوجه وابنة عمه زبيدة . أليس ذلك هو نفس ما فعله أبو العتاهية في أبياته سوى أنه كان لبقا في خطابه فبدا وكأنه يتحدث إلى نفسه .. وإنما كان يتحدث إلى الخليفة

هذا بعض ما كان من مظاهر تشيع أبي العتاهية لزبيدة . أما ما كان من تعصبها له ومناصرتها إياه فقد كان معروفا غير مجهول. وقد تحدثت عنه كتب الأدب في غير موضع، ومثال ذلك ما كان من مناصرتها له حين اختلف مع القاسم بن الرشيد وأحد

ولاة عهده . فقد وقف الشاعر إجلالا للقاسم حين مر به موكبه ولكن الأخير تجاهله ولم يلتفت إليه فأنشأ :

يتيه ابن آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنه

وبلغ ذلك القاسم فأحضر الشاعر وضربه مائة مقرعة وحبسه عنده، وما كان من أبي العتاهية إلا أن أرسل إلى زبيدة يشكو ما أصابه في أبيات لا تختلف في معناها عن البيت السابق، وما لبثت زبيدة أن كلمت الرشيد في أمره فاستدعاه إليه وكساه ولم يرض عن القاسم حتى بر الشاعر وأدناه واعتذر إليه

وليس القاسم هو الأمير الوحيد الذي يبسط فيه الشاعر لسانه غير هياب ولا وجل ، بل نراه يغلو في إيذاء أمير آخر هو صالح المسكين عم الرشيد ويهدده بالقتل في أبيات غاية في الجرأة والتهور :

مددت لعرض حبلا طويلا ... كأطول ما يكون من الحبال
حبال بالصريمة ليس تفنى ... موصلة على عدد الرمال
فلا تنظر إلى ولا تردني ... ولا تقرب حبالك من حبالي
فليت الردم من يأجوج بيني ... وبينك مثبتا أخرى الليالي
فكرش إن أردت لنا كلاما ... وتقطع تحف رأسك بالقتال

ولم يكد ينجو من لسان الشاعر أحد من رجال الدولة ، وما حميد الطوسي وخازم بن خزيمة ويحيى بن خاقان وعمرو بن مسعدة إلا بعض من شملهم الشاعر بإيذائه لأتفه الأسباب . نحن لا نشك في أن الشاعر كان مريضا مرضا نفسيا دفعه إلى بغض ذوي الجاه والنفوذ في عصره كما ذكرنا من قبل، ومع ذلك فنحن لا نشك في أنه ما كان ليسرف في هجومه ذلك الإسراف لو لم يكن له ركن شديد يأوي إليه كلما أوقعه لسانه في مأزق ، وما حادث القاسم السالف الذكر إلا مثال واحد يبين لنا سر قوة الشاعر وإسرافه في عدوانه

ويظهر أن صلة الشاعر بزبيدة والفضل قد أكسبته جاها عريضا ومركزا رفيعا في الدولة، فأبو الفرج يروي أن منصور بن المهدي طلب إلى الشاعر أن يزوجه إحدى ابنتيه ، وما كان منصور هذا بالضعيف ولا الخامل ، وحسبك أن تعلم أن أهل بغداد قد عرضوا عليه الخلافة حينما اضطرب أمرها نتيجة للحروب التي كانت بين الأمين والمأمون . ويظهر أن منصورا كان حازما مائلا إلى جانب نباهة شأنه وعلو قدره ، وآية ذلك أنه رفض الخلافة وعمل في الوقت نفسه على تهدئة الفتنة وجمع كلمة الأمة

وقد ظلت صلة الشاعر بزبيدة وثيقة إلى آخر أيامها ، فنراها تلجأ إليه حين قتل ابنها الأمين واحتاجت إلى أبيات من الشعر تستعطف بها المأمون ، وقد أحسن الشاعر ترجمة شعورها فرضي المأمون عنها وأكرمها، وسأل عن صاحب الأبيات وكافأه بمثل ما كافأته به زبيدة

وإنا لنراه لزاما علينا وقد تعرضنا لما كان لزبيدة من أثر في حياة شاعرنا نتيجة لغيرتها أن نذكر أمثلة لما كانت تثيره في نفسها من تلك الغيرة المريرة من عواطف وتدفعه إليها من أعمال . من تلك الأمثلة ما كان منها حين أحست تعلق الرشيد بجارية تدعى دنانير . وقد كانت دنانير هذه مملوكة ليحيى بن خالد البرمكي ، وقد بلغ من افتتان الرشيد بها أن كان يزورها في بيت سيدها من وقت لآخر، وأهداها إلى جانب ذلك عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار . نسيت زبيدة كبرياءها وراحت تشكو الخليفة إلى أعمامه، وقد كان رده عليهم حين خاطبوه في شأن دنانير أنه إنما يعنيه منها غناؤها فقط ولا يهتم بشيء وراء ذلك . ولم تجد زبيدة بدا من التظاهر بالرضا بذلك الوضع، بل ذهبت في مجاملتها إلى أبعد الحدود فأهدت للرشيد عشر جوار اعتذارا عما أبدته من غيرة لا مبرر لها . هكذا يروي المؤرخون ، ونحن لا نستبعد أن تكون زبيدة إنما أهدت إليه هؤلاء الجواري لتشغله عن دنانير التي أشعلت في نفسها أحر نيران الغيرة

ويقع الرشيد في حبال جارية أخرى فتهرع زبيدة لا إلى أعمام الخليفة كما فعلت من قبل ، بل إلى أخته علية التي أقسمت لزبيدة لتجتذبن الخليفة إليها ثانية . وذات ليلة بينما كان الخليفة جالسا بفناء قصره أقبلت علية وزبيدة كل على رأس صف من جواريها وقد لبسن أفخر ثيابهن وأخذن يغنين :

منفصل عني وما ... قلبي عنه منفصل
يا قاطعي اليوم لمن ... نويت بعدي أن تصل

والحق أن المرء لا يكاد يتصور ذلك المنظر حتى يشعر بالرثاء لتلك الملكة التي دفعتها غيرتها الشديدة إلى مثل ذلك الموقف الذي لا تحسد عليه . ومع أن قصص زبيدة كثيرة إلا أننا نختتمها بالقصة التالية لما فيها من طرافة . وخلاصتها أن الرشيد هام يوما بجارية تسمى عنان ، وكانت عنان هذه شاعرة من الطبقة الأولى ، وكان الرشيد يعتذر عن تعلقه بها كلما خوطب في شأنها بأنه إنما يحبها لشاعريتها . وأوحت زبيدة إلى الأصمعي أن يحتال في تنفير الخليفة من عنان بوسيلة ما .. ووعدته على ذلك أجرا عظيما . وما زال الأصمعي يترقب فرصة للوثوب على فريسته حتى قال الخليفة يوما وقد ذكرت عنان في مجلسه : علم الله أني لا أهتم بها إلا لشاعريتها .. فقال الأصمعي : هلا أحب أمير المؤمنين الفرزدق إن كان كل ما يعنيه من عنان هو شاعريتها ؟ وهنا ضحك الرشيد وضحك الحاضرون معه وهدأت فورة حبه لعنان ولو إلى حين

ويظهر أن زبيدة قد نفد صبرها ولم يعد لها قدرة على احتمال اللطمات المتوالية التي يكيلها لها هارون ، فراحت تثأر منه بحيلة بارعة ، وقد يكون من الخير أن نذكر تفاصيل تلك الحيلة كما يرويها المؤرخون ثم نذكر رأينا الشخصي فيها . يروي المؤرخون أن زبيدة كان لها قرد يسمى أبا خلف ، وأنها كانت تعنى به عناية زائدة ، فكانت تقلده سيفا وخصصت له ثلاثين شخصا يقومون على خدمته ويسيرون بين يديه في شبه موكب كلما قام بجولة في الدينة . وأصدرت أمرها بأن يؤدى التحية لقردها كل من يدخل عليها ، ولم تكن تقنع ممن يدخل عليها كبيرا كان أو صغيرا بأقل من تقبيل يد أبي خلف . وقد نال أبو خلف موضع الحفاوة والتقدير حتى دخل يزيد بن مزيد على زبيدة في بعض الشؤون وطلبت إليه أن يقبل يد قردها ، فما كان من ذلك القائد الصعب الراس إلا أن استل سيفه وشطر القرد نصفين . وحزنت زبيدة لموت قردها حزنا شديدا وعزاها فيه الناس واستدعى الرشيد يزيد وطلب منه تفسيرا لما فعل بأبي خلف فأجاب : ما كنت لأخدم القردة بعد خدمة الملوك يا أمير المؤمنين . وهكذا يبدو أن المؤرخين لا يرون في أمر أبي خلف إلا عبثا بريئا من زبيدة . ونحن لا نشاركهم هذا الرأي ، وأول ما لفت نظرنا إلى ما يكمن خلف ذلك العبث الظاهري من معان هو الشبه بين اسم القرد « أبو خلف » ولقب الرشيد « الخليفة » وتأويل ذلك أن زبيدة وقد ضاقت ذرعا بالرشيد أرادت أن تسخر منه في شخص ذلك القرد الذي أقامته مقام الخليفة بما أحاطته به من مظاهر العظمة من سيف في وسطه وحرس من حوله .. وما من شك في أنها كانت توجه إلى ذلك القرد من النكات اللاذعة ما يشق عليها أن توجهه إلى الخليفة نفسه . ولعلها أرادت إلى جانب ذلك أن تخبر الرشيد بأنه إذا كان قد وجد عوضا عنها في الجواري يخلو إليهن ويسعد بلقائهن ، فقد وجدت هي الأخرى عوضا منه في ذلك القرد الذي يضحكها بما يأتيه من حركات أو يرسله من نظرات ، وما من شك في أن الرشيد قد عرف ما تهدف إليه زبيدة واستاء له أشد الاستياء .. فكان يزيد بن مزيد بقتله . وما كان استجوابه له فيما بعد إلا خدعة أراد بها استرضاء زبيدة

أما وقد فرغنا من الحديث عن علاقة الشاعر بزبيدة والفضل ابن الربيع فواجبنا أن نتحدث عن علاقته بالبرامكة خصوم الفضل .. وهو ما سيكون موضوع حديثنا في المقال التالي إن شاء الله تعالى

يتبع

دكتور محمد الكفراوي

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمي الواقعي

لشاعر فرنسا الخالد

* لامرتين *

ثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد